الملفان الخالد

في رثاء الملفان الخالد أبروهوم نورو

الخوالي أمضى بقطعِ الهامِ من أمضى النصالِ ... أمضى بقطعِ الهامِ من أمضى النصالِ

لا فرقَ عندَ القتلِ يُعرَفُ عندَهُ ... بين المُحرَّمِ في الشَّرائعِ والحلالِ

حرقاً وإغراقاً وخنقاً فاتكٌ ... بالعالمينَ مِنَ النِّساءِ أو الرِّجالِ

يدعو الغنيَّ إليهِ يذهبُ صاغراً ... وبدونِ مالٍ أو ثيابٍ أو نعالِ

من دون صوتٍ أو حراكٍ باطشٌ ... بالأسدِ والأطفالِ والصيدِ الغوالي

كالغولِ يغتالُ الرِّجالَ وما انتضى ... مِنْ صارمٍ أو ساحَ في ساحِ القتالِ

تسبي الوحيدَ يداهُ من حضنِ التي ... تفدي الوحيدَ بروحِها وبكلِّ غالِ

يبكي مِنَ العجزِ الرجالُ حيالَهُ ... كبكا صغارٍ رُضَّعٍ عندَ الفصالِ

أودى الرجالَ مدى الزمانِ وما ارتوى ... واليومَ يودي بالأشمِّ من الجبال

ما كانَ أبروهومُ نورو في المدى ... جبلاً ولكنْ في الإرادةِ والفِعال

السنُّ أنحلَهُ وقوَّسَ ظهرَهُ ... حتّى أطلَّ القوسُ إطلالَ الهلال

لينوِّرَ الأجيالَ باللغةِ الَّتي ... نطقَ المسيحُ بها فنوَّرتِ الليالي

كالشمعدانِ أنارَ أطباقَ الدُّجى ... وعلى المذابح ذابَ في نورِ الجلال

كالشمعدانِ ضياهُ ذوَّبَ شمعَهُ ... حتّى تماهى النورُ في نورِ الأعالي

الموتُ نازلَهُ ونازلَ موتَهُ ... بتبسُّم البطلِ المُظفَّرِ في النزالِ

الداءُ شاغلهُ فواصلَ شغلَهُ ... حدباً على لغةِ المسيحِ بلا كِلالِ

جلداً وعظماً صارَ آخرَ عمرِهِ ... والروحُ جَلْدٌ والإرادةُ كالنبالِ

دبَّ الهُزالُ بجسمِهِ والموتُ قد ... بقيَ الهزيلَ أمامَهُ رغمَ الهُزالِ

وكموتِ قدّيسينَ كانَ مماتُهُ ... فرحاً بلقيا اللهِ في دنيا الجمال

في وصفِ أبروهومَ نورو كلّما ... قالَ البيانُ أبانَ إعياءَ المقالِ

إنْ قالَ كانَ مسالماً وموادعاً ... أبدتْ عزيمتُه أساطينَ النضالِ

أو قالَ طفلاً ظلَّ رُغمَ مشيبِهِ ... فكتابُ سيرتِهِ أساطيرُ الخيالِ

أو قالَ أشبهَ في التواضعِ وادياً ... بدتِ الجبالُ إزاءَهُ بعضَ التلالِ

لم يشهدِ التاريخُ طلعةَ عاشقٍ ... معشوقُهُ لغةٌ سواهُ مدى الخوالي

إنْ غرَّدتْ لغةُ المسيحِ لسَمْعِهِ ... سكرتْ بمبسمِهِ عناقيدُ الدوالي

خدمَ اللسانَ بعمرِهِ وبمالِهِ ... والبذلُ كلُّ البذلِ مِنْ عمرٍ ومالِ

أمضى الحياةَ مُعلِّماً مُتعلّماً ... لغةَ الطهارةِ والقداسةِ والكمالِ

وأحالَ مكتبةً جوانبَ بيتِهِ ... لتكونَ جامعةً لطلابِ المعالي

قـــد كـــرَّسَ الملفـــانُ فســـحةَ عمـــرِهِ ... ليقـــولَ للســـريانِ خاتمـــةَ المقـــالِ
فـــي فقـــدِها أعمـــارُكم وعمـــارُكم ... شِـبهُ النقـوشِ أوِ الرُّتـوشِ علـى الرِّمـالِ
المـــرُّ يحلـــو فـــي ســـبيلِ بقائهـــا ... ويخـــفُّ عنـــدَ لقائهـــا عـــبءُ الثِّقـــالِ
هـــي مجـــدُكم ووجـــودُكم وخلـــودُكم ... وهـــي الطريـــقُ إلـــى المعـــزَّةِ والكمـــال
هـــي صـــوتُ آرامٍ وبابـــلَ والرُّهـــا ... وبهـــا علـــتْ آشـــورُ مِـــنْ عـــالٍ لعـــالِ
هـــي مقـــدسٌ للطـــالبينَ رضـــا السَّـــما ... وصـــلاةُ قدّيســـينَ فـــي صـــمتِ القَلالـــي
أمُّ الحـــــروفِ حروفُهـــــا وقِطافُهـــــا ... إبـــــداعُ أفـــــرامٍ وكوكبـــــةِ المعـــــالي
وبهـــا أحيقـــارُ الحكـــيمُ حبـــا الـــورى ... حِكَمـــاً تُنـــافسُ فـــي نفاســـتِها اللآلـــي
وبهـــا ملائكـــةُ السَّـــماءِ ترنَّمـــتْ ... فـــي ليلـــةِ المـــيلادِ مِـــنْ مجـــدِ الأعـــالي
مـــاءُ الخـــلاصِ مِـــنَ السَّـــماءِ بهـــا جـــرى ... وترقـــرقَ الإنجيـــلُ كالمـــاءِ الـــزُّلالِ
لغـــةٌ بهـــا نطـــقَ المســـيحُ وأمُّـــهُ ... يعنـــو الـــزَّوالُ لهـــا ويـــذهبُ للـــزَّوالِ

***

طـــافَ البريّـــةَ فـــي المـــدائنِ والقـــرى ... شـرقاً وغربـاً فـي الجنـوبِ وفـي الشِّـمال
فـــي العـــزم كالأســـدِ الهصـــورِ فـــؤادُهُ ... ولياقـــةً ورشـــاقةً صـــنوُ الغـــزال
مُتفقِّـــداً أبنـــاءَ أمَّتِـــهِ كمـــا ... يتفقَّـــدُ الأبُ بيتَـــهُ فـــي كـــلِّ حـــال
فـــي كـــلِّ ســـانحةٍ تُجمِّـــعُ شـــعبَهُ ... كـــأبٍ مـــعَ الأبنـــاءِ أو عـــمٍّ وخـــالِ
فـــي ملتقـــى الســـريانِ يـــرقصْ قلبُـــهُ ... رقـــصَ البلابـــلِ والســـنابلِ والغـــلالِ
للهِ دَرُّكَ أيُّهـــا الملفـــانُ يـــا ... حلـــوَ الشَّـــمائلِ والفضـــائلِ والخِصـــالِ
حلـــبٌ وأبروهـــومُ نـــورو والرُّهـــا ... ســـحرُ العراقـــةِ والمحبَّـــةِ والجمـــالِ
اللحـــدُ يســـألُ عنـــكَ مهـــدَكَ فـــي الرُّهـــا ... والشـهبُ تسـألُ عنـكَ فـي حلـبَ الأهـالي
عـن لطـفِ ظلِّـكَ تسـألُ الشَّـمسُ الـدُّنى ... عـنْ نـورِ وجهِـكَ يسـألُ القمـرُ الليـالي
فكـــأنَّ وجهَـــكَ كـــانَ أجمـــلَ كوكـــبٍ ... وكـــأنَّ ظلَّـــكَ لـــم يكـــنْ مثـــلَ الظِّـــلالِ
لا غَـــرْوَ أنْ تشـــتاقَ لقيـــاكَ السَّـــما ... ويسـيلَ دمـعُ الأرضِ فـي توديـعِ غـالِ
فـــي الأرضِ أبهجْـــتَ السَّـــماءَ بجولـــةٍ ... ولـــكَ السَّـــماءُ اليـــومَ أرحـــبُ للمجـــالِ

***

المـــوتُ فـــي الـــدُّنيا ســـؤالٌ مُعضِـــلٌ ... ومَعـــادُ أجوبـــةِ الســـؤالِ إلـــى السُّـــؤالِ
الفلســـــفاتُ أمامَـــــهُ ورجالُهـــــا ... هـــيَ عطســـةٌ للمـــوتِ أو بعـــضُ الســـعالِ
إنْ يُعْـــدَمِ الحـــيُّ الرَّجـــاءَ فعمـــرُهُ ... كسُـرى الجِمـالِ مِـنَ الرِّمـالِ إلـى الرِّمـالِ
المـــوتُ أغلـــى بالحيـــاةِ فأصـــبحتْ ... مِـنْ غيـرِ تقـوى اللهِ أرخـصَ مِـنْ ريـالِ

المــوتُ يســرقُ بعضَــهم مِــنْ بعضِــهم ... ليجـــيءَ دورُ السَّـــالمينَ علـــى التـــوالي
المـــوتُ يســـرقُ كـــلَّ حـــينٍ غاليـــاً ... مِــنْ أهلِــهُ والأهــلُ فــي عجــزِ السَّــحالي
فيولولـــــونَ مِـــــنَ النَّكـــــالِ وإنَّهـــــم ... ليُزغـــــردونَ ويرقصـــــونَ مِـــــنَ الخَبـــــالِ
طلــبُ الخــلاصِ مِــنَ المنيَّــةِ مِــنْ يــدِ ... الإنســانِ شــأوَ الــدَّهرِ مِــنْ طلــبِ المُحــالِ
لــم يغلــبِ المــوتَ الرَّهيــبَ ســوى الَّــذي ... فـــي هـــامِ جلجلـــةٍ تكلَّـــلَ بـــالجلالِ
والمؤمنـــــونَ بـــــه الألـــــى أعطـــــاهم ... الملكـــــوتَ كالملفـــــانِ مفخـــــرةِ الرَّجـــــالِ